الفصل الثالث

السنة الأخيرة

المهمة الأخيرة

بعد أن رجع طيّارو هامبورغ إلى فلوريدا في يناير/ كانون ثاني، تحوّل اهتمامهم من الوظيفة العادية في تعلم قيادة الطائرات إلى البدء بالإعداد للهجوم. وكان أمامهم عدة مهام:

- الحصول على مزيد من التدريب على الطيران وتخصيص مزيد من الساعات في مشبهات الطيران التجاري حتى يتمكنوا من قيادة الطائرات التجارية ولو لفترة وجيزة.
- دراسة ومعاينة الإجراءات التي تتبعها شركات الطيران من أجل تحديد أفضل السبل للركوب على متن الطائرة والسيطرة على قمرة القيادة في أثناء الطيران.
- توصيل هذه المعلومات إلى الأشخاص الذين سيرسلون لمساعدتهم.
- إيواء وإطعام هؤلاء الأشخاص، وتنظيمهم ضمن فرق عمل.
- تحديد وقت الهجوم.

وفور عودتهم، بدؤوا بمزيد من تدريبات الطيران[1]. مارس جراح بشكل مكثف مشبهات الطيران في ميامي. ولم يكن قد أنهى متطلبات الحصول على رخصة الطيران التجاري في السنة الماضية كما فعل عطا والشحي. ظهر عطا

obeikan.com

والشحي في ضواحي مدينة أتلانتا في جورجيا، حيث بدءا باستئجار الطائرات للتدرب على قيادتها. وفعلوا ذلك على نحو متقطع طوال شهر استأجرا خلاله غرفة في إحدى الفنادق ذات الأجرة المخفضة[2]. كما قاما برحلة إلى شواطئ فيرجينيا، حيث استأجرا عنوان بريد تجاري لدى شركة خاصة تقوم بتأجير صناديق بريد تجارية. وفي اليوم التالي سحبا مبلغ أربعة آلاف دولار نقداً من حسابهما المصرفي، ثم عادا إلى فلوريدا[3]. وفي الجهة المقابلة من القارة الأمريكية، التحق هاني حنجور بمعهد جت تك لتدريب الطيران في فينكس بولاية أريزونا[4]. وكان المدربون في ذلك المعهد قلقين من ضعف لغته الإنجليزية. فاللغة الإنجليزية هي اللغة الدولية للطيران؛ ولا يمكن لشخص الطيران بسلامة وأمان دونها. وكان حنجور يحمل رخصة طيران تجاري ولكن لغته الإنجليزية كانت على درجة من الضعف والركاكة مما جعل المسؤولين في المعهد يتساءلون كيف حصل على تلك الرخصة، وعما إذا كانت رخصته شرعية أم مزورة. فقاموا بالاتصال بمدققي سلطة الطيران الفيدرالية الذين أكّدوا بدورهم أن رخصة حنجور صادرة فعلاً عن الوكالة. ورأت الوكالة أن كل ما ينقص حنجور هو مدرس للغة الإنجليزية ليس أكثر. مكث حنجور عدة شهور في جت تك، وأمضى معظم وقته على مشبه لطائرة بوينغ 737 وذلك بالرغم من عدم إحرازه مزيداً من التقدم.

وفي تلك الأثناء، كان أسامة بن لادن يحث خالد شيخ محمد بالإسراع في التحضيرات. وكان يريد البدء بالهجوم[5]. إلا أن عطا رفض. وكان هناك أشياء يجب الانتهاء منها أولاً، كما قال عطا، وأيده في ذلك خالد شيخ محمد. كرر ابن لادن مطالبه طيلة الأشهر التالية.

وفي فبراير/ شباط، خضع والد زياد جراح لعملية في القلب. وطلبت الأسرة من زياد أن يرجع إلى لبنان ليكون إلى جانب والده. إلا أن زياداً تباطأ،

ثم حدد موعداً لزيارة لبنان في نهاية شهر مارس/ آذار، وسافر فعلاً. وفي رحلة العودة توقف في بوتشوم لرؤية آيسل. وظهر تأثره الشديد بتردي صحة والده. وقال بأنه يريد أن يجدد عهده في العلاقة بهما.

تقول آيسل: "لقد كان فعلاً متأثراً، وقال بأنه، أي زياد، يرغب في إنجاب الأولاد قريباً كي يشاهدهم أبوه ويفرح بهم قبل وفاته"(6).

لاحقاً، وبعد أن عاد زياد إلى الولايات المتحدة، وبسبب عدم تحديده موعداً لانتهاء تدريباته، انتاب الغضب آيسل مرة أخرى. وزياد، كعادته، لديه تفسير جاهز؛ وآيسل، كعادتها، قبلت ذلك العذر. ذلك أن استمرار العلاقة بينهما، كان يعتمد في جزء كبير منه على مقدرة آيسل في تصديق أكاذيب زياد، حتى تلك التي تبدو واضحة جداً. وفي إحدى المرات التي زار فيها زياد بوتشوم، أبرز زياد صورة له في أثناء رحلة داخلية في الولايات المتحدة، ويبدو أن الصورة أخذت في أثناء رحلة استطلاعية قام بها زياد وبقية رفاقه لمعاينة الإجراءات الأمنية المتبعة في أثناء الرحلات الجوية، وفي جميع هذه الرحلات، كانوا يسافرون بالدرجة الأولى أو الدرجة السياحية. وسألته آيسل لماذا كان يجلس في الدرجة الثانية. فأجابها زياد بأن المضيفة طلبت منه الجلوس في الأمام، لأنني كنت لبنانياً، كما قال، وأرادوا وضعي في مكان يكون من السهل عليهم مراقبتي فيه بشكل دائم. وكان هذا الوصف أقرب ما يكون لما تريده آيسل، أن تضع زياداً في مكان بحيث يمكنها أن تجعله نصب عينيها دائماً. ولكن حتى عندما كان نصب عينيها – في ذات الغرفة وذات السرير – لم تكن آيسل ترى إلا إلى حدّ معين. فقد جعل زياد من النظر إليه بعمق أمراً صعباً، كما أن آيسل، فيما يبدو، كانت تتعامى عما تراه، لم تكن ترغب رؤية ما هو أمامها. لقد شاهدت جراح وهو يخطو في طريقه نحو مؤامرة الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول خطوة خطوة. وبإمكانها، حتى هذا اليوم، أن تستذكر تلك

الخطوات، وما زالت تعتقد أنها لم تكن تعلم إلى أين تتجه. وبالطبع، لم تصدق آيسل الدليل، كانت تؤمن بما يؤمن به المحبون – كانت تؤمن بزياد.

لم تكن آيسل وحدها في ذلك. فقد كانت معتقدات مجموعة هامبورغ ورفاقهم علنية جداً بحيث بدت الفكرة القائلة بأنهم كانوا خلية سرّية للقاعدة أو "عملاء نائمون" وكأنها فكرة مناقضة للحقيقة. وفي بعض الأحيان بدا وكأن كل شخص عرف هؤلاء الأشخاص من هامبورغ، وبخاصة أسرهم، يمكنه أن يلاحظ أن خطأً جسيماً قد حدث في حياتهم.

تعامل الطيارون بشكل مختلف مع أسرهم. وقد كانت أسرة زياد الأسرة الوحيدة التي لديها فكرة صحيحة تقريباً عما كان يحدث – الإقامة في فلوريدا والالتحاق بمعهد للطيران. ولكن لم يكن لديهم فكرة عن السبب الذي دفع ابنهم لتعلم الطيران، ولكنهم مع ذلك كانوا بالمقارنة مع بقية أسر الطيارين أكثر علماً بما كان يجري. كان والد ووالدة عطا على علم بأن ابنهما موجود في الولايات المتحدة أيضاً، ولكنهما كانا يعتقدان أنه يتابع دراسة الدكتوراه في التخطيط الحضري. أما أسرة الشحي فكان من الواضح أنها لم تكن تعلم أي شيء عنه.

فبعد أن غادر الإمارات في ربيع عام 2000، كان مروان الشحي على اتصال مع أهله على نحو منتظم لمدة من الزمن، ثم تناقصت تلك الاتصالات إلى أن توقف أخيراً عن الاتصال نهائياً. وعندما جاء رمضان في ذلك العام في شهر ديسمبر/ كانون أول، ولم تسمع الأسرة من مروان، وهو ما يعتبر خرقاً خطيراً للعادات والمسؤوليات الأسرية، ثارت حفيظة أمه. (لم يكن أبوه على قيد الحياة فقد توفي قبل عدة سنوات من ذلك التاريخ) وحاولت أن تعرف ما الذي يجري. فاتصلت بالسفارة الإماراتية في بون عدة مرات، مناشدة إياهم التحري عنه. قامت السفارة على إثر ذلك بالاتصال بالجامعة التقنية في هامبورغ،

حيث كان من المفترض أنه يدرس فيها. وقالت الجامعة بأنه انقطع عن الدراسة منذ عام؛ وأنهم أرسلوا إليه رسالة يخبرونه فيها بأن الجامعة قامت بشطبه من سجل تسجيل الجامعة. كما أن سجلات الشرطة لم تتضمن أي شيء يتعلق به؛ ولكنها فتحت له ملف تحقيق بين الأشخاص المفقودين بعد أن تبين أنه لا يعرف مكان وجوده، إلا أن ذلك التحقيق لم يسفر عن أي شيء. وأخيراً أرسلت والدة الشحي أخاه غير الشقيق محمد إلى ألمانيا. وأمضى محمد ويرافقه موظف من السفارة الإماراتية عدة أيام في بون وهامبورغ في البحث عن مروان[7].

يقول محمد عودي، أحد زملاء الشحي في بون: "سأل في كل مكان، في المساجد، وحتى في ناد عربي لكرة القدم، ولكن دون جدوى"[8].

ويقول أحد موظفي الأمن الإماراتيين: "كنا نعلم أنه لم يكن يدرس في الجامعة في ألمانيا، وأن الألمان لم يكن لديهم أي علم بمكانه"، ويضيف،"كنا نحاول إعادته إلى الإمارات. وكنا نحاول تعقبه"[9].

أخيراً، وعندما كانوا في هامبورغ، تحدثوا إلى منير المتصدق، وكان يحمل توكيلاً من الشحي يخوله التصرف بحساباته. وقال لهم المتصدق بأن الشحي ذهب إلى الشيشان أو أفغانستان[10]. عاد محمد إلى الإمارات العربية المتحدة، وفي ذلك الشهر، اتصل الشحي بأهله بعد أن تنبه شخص ما، على ما يبدو، وأخبر أسرته بأن المتصدق كان مخطئاً فيما ذكره عن الشيشان؛ وأنه انتقل إلى منطقة أخرى في هامبورغ. وأنه ما زال يدرس. وقال بأنه متأكد أنه سيرى النور في نهاية النفق. وبغض النظر إن كانت أسرته صدقته فيما قال أم لا، فإنهم قرروا طرح المسألة جانباً، وعاد الشحي إلى استئناف عمله.

قد يبدو من بعيد أن المجموعة الرئيسة المشتركة في هذه المؤامرة قامت بأسفار كثيرة. وقد تبدو المدة التي أمضوها في الولايات المتحدة وكأنها

تحركات غامضة وغير واضحة. إلا أنها لم تكن كذلك من الناحية الفعلية. فقد مكث الطيارون الثلاثة من هامبورغ في الولايات المتحدة مدة خمسة عشر شهراً تقريباً. وخلال النصف الأول من تلك الفترة، كانوا يقومون بأكثر من مجرد الذهاب إلى المعهد لعدة ساعات في اليوم والعودة إلى المنزل. وفي النصف الثاني من تلك المدة، فإنهم لم يفعلوا ذلك في معظم الأيام. وبشكل عام مرّت عليهم مدد زمنية طويلة لم يفعلوا خلالها شيئاً يذكر. كانوا في حالة من الانتظار. وكانوا يتناولون الغداء في المطاعم الشرق أوسطية القليلة في المنطقة – في الغالب لبنانية – التي كانوا يجدونها[11]. ويتسوقون في مراكز التسوق.

كانوا يغيرون مساكنهم كل شهر تقريباً. وفي الغالب كانوا يستأجرون غرفاً مفروشة أو شققاً سكنية صغيرة في تجمعات سكنية ذات أجرة منخفضة. ولم يكن للطيارين الثلاثة اتصال مع السكان المحليين فيما عدا التعامل التجاري العادي. وعندما طلب من الشحي ذات مرة أن يسجل عنوانه الدائم في طلب استئجار، كتب "لا يوجد، فأنا شخص دائم التجوال"[12].

قاموا ببعض الأسفار، وكانت بعض هذه الرحلات بهدف دراسة ومعانية إجراءات الأمن المتبعة في المطارات وفي شركات الطيران، وبهدف العثور على الثغرات التي يمكنهم استغلالها حين تحين الفرصة[13]. وقام عطا تحديداً، من قاعدته في فلوريدا بالذهاب إلى أوكلاهوما ونيفادا، ونيوجيرسي وفيرجينيا وجورجيا وماسيتشيوستش وماين. كما سافر مرتين إلى أوروبا. ورافق الشحي محمد عطا إلى جورجيا وفيرجينيا، وقام بعدة رحلات وحده إلى نيفادا وكاليفورنيا. كما أنه غادر الولايات المتحدة مرتين: الرحلة الأولى سافر فيها إلى المغرب وربما منها إلى ألمانيا، والرحلة الثانية كانت في الربيع إلى القاهرة حيث التقى فيها والد محمد عطا[14]. وغاب عن الولايات المتحدة مدة أسبوعين. وعلى الأرجح فيما يبدو أنه ذهب إلى الإمارات ليرضي أمه. وسافر

جراح داخل الولايات المتحدة إلى جورجيا ونيفادا وكاليفورنيا ونيوجيرسي وميريلاند. وكان بالمقارنة مع رفاقه أكثرهم سفراً إلى الخارج: رحلة إلى جزر الباهاما وخمس إلى أوروبا من ضمنها رحلة إلى بيروت.

وفي الجهة الغربية، مكث نواف الحازمي أكثر أو أقل في بيته في سانديا‌غو. فيما عدا الأوقات التي سافر فيها براً إلى لاس فيغاس في ولاية نيفادا. إلا أن هذه الوضع تغيّر بعد مقدم حنجور. فقد انتقلا إلى أريزونا لعدة أشهر، ويبدو أنهما توجها بعدها براً إلى ولاية فيرجينيا. وفي الطريق أوقفتهم إحدى دوريات الشرطة الخارجية غرب أوكلاهوما لإعطائهم مخالفة مرورية بسبب سرعتهم الزائدة. ويبدو أن إيقافهم من قبل شرطة أوكلاهوما حدث بطريق المصادفة. فخلال ذلك الوقت، كان خاطف محتمل آخر يتلقى تدريباته في معهد للطيران في أوكلاهوما، وهذا الشخص هو زكريا موسوي.

وموسوي هذا، هو الشخص الفرنسي ذي الأصل المغربي وصاحب المزاج المتقلب. والذي وافق خالد شيخ محمد على إرساله للتدريب على الطيران بتردد. عاد موسوي يستعلم مرة أخرى من معهد إيرمان للطيران في مدينة نورمان من ولاية أوكلاهوما، في شهر فبراير/ شباط، معتذراً عن التأخير، وقدم هذه المرة يقول: "الحياة ليست كما نقدر ونتوقع". وأراد موسوي معرفة تكلفة ومدّة التدريب لحزمة كاملة تبدأ من التدريب الأرضي وحتى الحصول على رخصة الطيران التجاري. ثم، وعلى نحو مفاجئ، أرسل رسالة إليكترونية إلى "الآنسة بريندا" في المعهد نهاية فبراير/ شباط، ورد فيها "عاجل جداً. إنني مسافر غداً بالطائرة لرؤيتك ...سأكون ممتناً إذا كان في المطار من يستقبلني"[15].

وصل موسوي، ورفض ترتيبات المسكن التي اقترحها المعهد لأنها كانت في نظره، شعبية وباهظة التكلفة، واستأجر بدلاً من ذلك غرفة، واشترى سيارة

صغيرة مستهلكة، وأودع مبلغ 32 ألف دولار في حساب مصرفي فتحه لدى أحد المصارف المحلية. ودفع نقداً رسوم برنامج تدريب يمكّنه من الحصول على رخصة خاصة للطيران، وهي خطوة أولى أساسية نحو الرخصة التجارية. وبعد ثلاثة أشهر وأكثر من 50 ساعة طيران، لم يكن موسوي جاهزاً بعد للطيران وحده. وأخبره القائمون على المعهد أن بإمكانه متابعة التدريب معهم ولكن عليه أن يدفع رسوماً إضافية عن الساعات الإضافية التي سيأخذها. إلا أنه رفض العرض وقال بأنه سيتابع تدريباته في مكان آخر. وإذا كان هناك نية لاستخدام موسوي في عملية الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، فإن من المرجح أنها انتهت عند تلك اللحظة[16].

الرجال الأخيرون

مع نهاية ربيع عام 2001، دخلت الاستعدادات النهائية مرحلة جادة مع وصول بقية طاقم الخاطفين، فرق الضربة، كما كان يطلق عليهم. وكانوا جميعاً من السعوديين باستثناء شخص واحد. وبدؤوا بالوصول أواخر شهر إبريل/ نيسان . ومع نهاية أواخر شهر يونيو/ حزيران، كانوا جميعاً في الولايات المتحدة. أراد خالد شيخ محمد إرسال المزيد من الرجال أي بمعدل سبعة إلى ثمانية في الطائرة الواحدة[17]. وكان هناك على الأقل ستة أشخاص من الذين اختارهم لتلك المهمة، ولكنهم لم يتمكنوا من القدوم إلى الولايات المتحدة؛ بعضهم رفضت طلباتهم للحصول على تأشيرة دخول، وبعضهم الآخر أبدى موافقته على المشاركة إلا أنهم انسحبوا قبل مغادرتهم إلى الولايات المتحدة . وكان هناك على الأقل شخص واحد لم يسمح له موظف الهجرة بالدخول إلى البلاد[18].

ولا يعرف سوى القليل عن هؤلاء الأشخاص الذين وصلوا متأخرين. وسبب ذلك أن المملكة العربية السعودية كانت شحيحة في تقديمها المعلومات

الموجودة لديها، والتي تعتبر ذات أهمية. كما أنها جعلت من الصعب على الآخرين استكشاف هذه المعلومات. إلا أنه ليس من المستغرب، من منظور أكبر، أن يكون معظم الخاطفين من السعودية؛ فمنذ البداية، كان السعوديون يشكلون أكبر نسبة من بين الأفغان العرب. وابن لادن نفسه سعودي، وكذلك معظم الذين قدّموا الدعم المالي للمجاهدين، وفيما بعد، للطالبان. كما أن أبرز جماعات ومنظمات الإغاثة التي كانت من أقوى مؤيدي طالبان التي اتهمت بتقديم العون لخطط القاعدة، كانت تتلقى معظم دعمها من السعودية، أو كانت مراكزها الرئيسة هناك.

ينحدر معظم الخاطفين السعوديين من منطقة عسير، وهي منطقة جبلية تقع جنوبي غرب المملكة. وهي منطقة وعرة، ومعزولة جغرافياً واجتماعياً عن هيكل السلطة في السعودية التي تتركز في مثلث جدّة - مكة - الرياض. وتعتبر باقي أجزاء المملكة مغلقة من الناحية الفعلية بما فيها المناطق الشرقية التي تحتوي على معظم المخزون النفطي السعودي. وابن لادن، برغم ثروته الهائلة، كان هو الآخر يعامل معاملة الغرباء لأنه لم يكن من القبائل الملكية. فهو حضرمي، كما يقول الناس، وهذا يعني أن أسرته جاءت من وسط اليمن، قاصدين أن ذلك هو كل ما يكفيك أن تعرف.

كانت مناطق جنوب غرب المملكة مستقلة عن السيطرة السعودية وتحكمها قبائل محلية حتى العشرينيات من القرن الماضي. وحتى بعد أن أصبحت جزءاً من الأمة السعودية، إلا أنها لم تندمج بشكل كامل في المجتمع السعودي وبقي سكانها معزولين. إلا أنها، بالمقابل، لقيت كامل الاهتمام من العاصمة فيما يخص المسائل الدينية. وانتشرت في أرجائها البعثات الدينية والوعاظ في القرن التاسع عشر، وحققوا فيها نجاحاً كبيراً. وأصبحت منطقة جنوب غرب السعودية، وما زالت، معقلاً قوياً لأكثر أشكال الوهابية السلفية تشدداً، وأكثر

المناطق المحافظة دينياً في المملكة. وبعبارة أخرى، تعد قيمها نسخة مشددة مما هو سائد في المملكة.

ينحدر معظم الخاطفين السعوديين من أسر تعمل في التجارة أو في الأعمال المدنية - أسر موسرة ولكنها ليست ثرية. ووصف عدد منهم بأنهم كانوا من بين أفضل أقرانهم - أذكياء، ومحترفين - في بلداتهم. وكانوا في الغالب أشخاصاً غير متميزين ولم يكن من بينهم أي أحد متميز بنشاطه السياسي أو الديني. والتحق عدد كبير منهم بالجامعات في الرياض وجدة. ودرس ثلاثة منهم الشريعة. وكان واحد منهم على الأقل، وهو أحمد إبراهيم الحزناوي، في الحادية والعشرين من العمر. يحفظ القران غيباً، وهي علامة على عمق الورع والتدين، ومحل احترام وتقدير الآخرين. ورجل آخر هو وائل الشهري، كان مدرساً للتربية الرياضية. وتقول أسرة الشهري بأن وائلاً أصيب بالاكتئاب أواخر عام 1999، فأرسله أبوه إلى إمام في الحي ليقدم له النصيحة. وصف الإمام له قراءة القرآن لعلاج الاكتئاب. وبعد ذلك بوقت قصير، غادر وائل وأخوه وليد إلى أفغانستان.

غادر أيضاً عدد آخر من الشباب، مثل الشهري، مع أصدقاء مقربين أو أقارب. وأخبر ثلثهم ذويهم بأنهم ذاهبون إلى الجهاد. وقال عدد منهم بأنهم ينوون القتال في الشيشان. واختفى بعضهم الآخر.

إن قيام عدد من الشباب المنحدرين من أسر مرموقة بمغادرة البلاد وترك أسرهم دون أن يُحدث ذلك جلجلة ودون أن يحاول أحد إيقافهم، يعد دليلاً على مدى سعة وعمق الدعم داخل السعودية للجهاد. ولم يتوقف أبداً تدفق أفواج الشباب التي تضاعفت خلال الحرب الأفغانية ضد السوفييت. واستقرت العادة سواء وجد أعداء بارزون للإسلام أم لم يوجدوا. وفي ظل عدم وجود منع فعلي من الحكومة، استمر هذا التدفق دون توقف على مدى

عقد من الزمان حتى بعد اختفاء السبب الأصلي للجهاد [الاحتلال السوفييتي] .كما أن اعتياد الشباب الذهاب إلى الحرب يدلّل على حقيقة أخرى وهي أنه لم يكن هناك شيء أمام هؤلاء الشباب لفعله أو كان هناك الشيء القليل. فالاقتصاد السعودي ببساطة لم يخلق فرص عمل معتبرة للطبقات المتزايدة من الشباب السعودي. ومع عدم وجود عمل يربطهم، تُركوا للسقوط في الهاوية. وأمام انعدام السبل الاقتصادية، لم يكن أمامهم سوى التوجه في السبيل الذي يدعوهم إليه دينهم.

كانت شبكات التجنيد المحلية مضمنة في الهيكل الاجتماعي للدولة. وكانت تشكل جزءاً جوهرياً من المجتمع، وليست شيئاً عارضاً عليه. والمملكة العربية السعودية، وبخاصة أنه يحكمها نظام ملكي مطلق، ليس فيها ممارسة سياسية بالشكل والمضمون المعهودين في الغرب؛ ولا يوجد فيها نقاش علني عام حول السياسات والمواقف والتوجهات الوطنية. ولكن السعودية هي أيضاً واحدة من أكثر المجتمعات شديدة التدين على وجه الأرض، ودينها هو الإسلام الذي تمتزج فيه السياسة بالدين. فكل شأن سياسي هو شأن ديني بالضرورة؛ وكل شأن ديني هو أيضاً سياسي. ومسائل الدين تخضع بكثرة للنقاش. ويقول وحيد حمزة هاشم المتخصص بالسياسة السعودية، إن هذا الوضع أوجد عملية تجنيد عضوية في مختلف أرجاء المجتمع السعودي:

"في كل شارع هناك مسجد. وفي كل مسجد هناك إمام. وكل ليلة، وعقب صلاة المساء، لا يمكث الجميع في المسجد. يحدث نقاش، وهناك وجهة، وهناك نداء. وفي الإسلام، يجب أن يخضع كل شيء للتمحيص. هل هذا صحيح أم خطأ؟ فأين تتوجه لمعرفة الجواب؟ هؤلاء الشيوخ وبعض الأئمة مرتبطون ببعضهم...ومن هناك كانت البداية. وفي النهاية فإنك تتحول من نفس بشرية إلى قنبلة بشرية. تتحول إلى آلة للقتل"[19].

لم يكن هناك طريق مباشر أمام معظم هؤلاء الشباب للذهاب من الشرق الأوسط إلى الشيشان أو البوسنة للقتال. كما لم تكن هناك رغبة لدى المسلمين المقاتلين في تلك المناطق بتلقي هذه المجموعات من شباب أغرار وغير مدربين. فانتهى المطاف بأولئك الذين غادروا البلاد لكي يقاتلوا في حروب مقدسة، بغض النظر عن المكان الذي تخيلوه لتلك الحروب، انتهى بهم المطاف إلى أفغانستان. ولم تقترب هذه المجموعة من الشباب السعودي من أي ساحة تقليدية للقتال. بل تم اختيارهم من قبل مجندي القاعدة الذين كانوا يبحثون عن شباب يحملون جوازات سفر نظيفة ولديهم الاستعداد للموت في سبيل معتقداتهم. وكانت "كتائب الشهداء" بحسب وصف خالد شيخ محمد مكتظة بالمتطوعين بأكثر من طاقتها[20]. وكانت الخطة الأصلية تقضي بملء المراتب الدنيا (الجنود المشاة) في الخطة بشباب من دول مختلفة لكي يتوزع الشرف بينهم. ولكن أسامة بن لادن قرر بدلاً من ذلك أن يرسل الغالبية من السعوديين[21]. ومهما كان سببه من وراء ذلك،[22]. فإن حصول السعوديين على تأشيرات دخول إلى الولايات المتحدة يعد من الناحية العملية أسهل بكثير من حصول غيرهم من الجنسيات الأخرى على تلك التأشيرات. وإن كان هناك أي شك في هذا الأمر، فإن تجربة الخاطفين أثبتت ذلك وعلى نحو قاطع. وكان عدد من جوازات سفر السعوديين قد تعرضت لعمليات تزوير واضحة بهدف إخفاء سفرهم إلى باكستان. وقام معظمهم بارتكاب أخطاء جسيمة أو بإخفاء معلومات في طلبات حصولهم على تأشيرات الدخول إلى الولايات المتحدة. كما فشل عدد منهم في إثبات يسرهم المالي وهو شرط مطلوب من أجل الحصول على تأشيرات ذات مدد طويلة. ولم يكن لأي من هذه الأخطاء أي أثر[23]. فقد حصلوا جميعاً على تأشيرات دخول. وكان الشخص الوحيد غير السعودي من بينهم، شخص إماراتي وصديق للشحي اسمه فايز بني حماد. وهو الآخر لم يواجه أي عقبة في الحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة.

تلقت المجموعة تدريبات على القتال اليدوي في معسكرات تدريب القاعدة، وتعلموا المهارات التي سيحتاجونها في أداء مهمتهم الخاصة، وهي السيطرة على طاقم الطائرة. وكان الطيارون هم القادة، وبقية الرجال هم العضلات.

كانت الجنة مطلباً قوياً. وقبل مغادرتهم أفغانستان، قاموا بتصوير أشرطة فيديو يعلنون فيها عن رغبتهم، لا بل عن تشوّقهم للشهادة. وقال عبدالعزيز العمري في شريطه: إنه يتطلع إلى ما هو آت: "إنني أكتب هذا عن كامل وعي وإرادة، وإني أكتب هذا مع توقع النهاية التي هي قريبة. هذه النهاية هي في الحقيقة البداية. سوف نأتيكم. سوف نذلكم. ولن نتوقف عن متابعتكم.. وجزى الله خيراً كل من دربني وساعدني في هذا السبيل، وكان وراء هذا العمل الكريم. ولا ننسى ذكر القائد المجاهد الشيخ أسامة بن لادن حفظة الله. وأسأل الله أن يتقبل أعمالنا"[24].

دخل الأشخاص الثلاثة عشر - أو كتائب الإيمان، كما سماهم عمر (25) ساحة الجهاد من أبسط الطرق الممكنة: من خلال ممرات الطائرات المكيفة بالهواء البارد، ومواقف السيارات الإسمنتية في المطارات الأمريكية الحديثة. جاؤوا خلال شهرين؛ عبر أربعة مطارات مختلفة - ضواحي العاصمة واشنطن، نيويورك، أورلاندو، وميامي. وكانوا في العادة يسافرون مثنى مثنى. جاؤوا جميعاً عن طريق دبي في الإمارات العربية المتحدة، حيث قام ابن أخت خالد شيخ محمد بتزويدهم بالنقود والحسابات المصرفية، وأعطاهم فكرة مختصرة حول كيفية التصرف واللباس في الولايات المتحدة[26].

كان الأشخاص الذين في الولايات المتحدة - وهم الطيارون الأربعة بالإضافة إلى الحازمي - في استقبال الرجال الجدد فور وصولهم. وقام الحازمي وحنجور باستئجار شقة سكنية في مدينة باترسون في ولاية نيوجيرسي أواخر إبريل/ نيسان،. أما آخر أربعة وصولاً إلى الولايات المتحدة، فقدموا جواً إلى مطاري

دوليس وجي إف كيندي، واستقبلهم الحازمي هناك. أما التسعة الباقين، فاستقروا حول فورت لوديرديل شمال ميامي تحت إشراف عطا والشحي. وقطع الطيارون الثلاثة من هامبورغ عرض فلوريدا من مسكنهم في خليج فلوريدا إلى الجهة المقابلة على المحيط الأطلسي من أجل استقبالهم وتوجيههم.

سألت آيسل سينغوم، كعادتها، زياد جراح أن يفسر لها لماذا انتقل إلى منطقة ميامي. فأخبرها بأنه وجد معهداً أرخص للطيران. هذا على الرغم من أنه توقف عن التدريب ولم يلتحق بأي مدرسة للطيران. فبعد أن حصل على رخصة طيار خاص من معهد مركز فلوريدا للتدريب على الطيران في مدينة فينينس، لم يتخذ أي خطوات لاستكمال متطلبات الحصول على رخصة الطيران التجاري. واشتكت آيسل من صعوبة الاتصال بجراح حتى عندما لا يكون في حالة تنقل. "أحياناً كنت بحاجة إلى ممارسة الضغط عليه ليعطيني رقم هاتفه" هذا ما تقوله آيسل، وكان جراح يستخدم بطاقات الهاتف المدفوعة مسبقاً لإجراء مكالماته، وفي أكثر من مرة كانت تلك البطاقات تنتهي في منتصف الحديث مع آيسل،[27] ولم يكن يعاود الاتصال عندما يحدث ذلك.

ومنذ لحظة وصول العضلات وما بعدها وحتى بداية سبتمبر/ أيلول، سكن فريق الضربة على تخوم ضواحي المدن الأمريكية، في الشقق السكنية والفنادق الصغيرة. واشتركوا في نوادي اللياقة البدنية، وكانوا يتمرنون فيها يومياً. وقام جراح بالاشتراك في دورات في فنون القتال اليدوي. ويقول مدربه بأنه كان جاداً في تدريباته، وكان بإمكانه أن يبدع في هذه الرياضة[28].

وهذه الفترة هي التي أعطت المحققين فيما بعد انطباعاً عن تحركات مستعجلة ومرتبكة: استأجر أعضاء المجموعة سيارات ثم أعادوها. ثم استأجروا غيرها. وتنقلوا من مدينة إلى أخرى. إلا أن معظم هذه التحركات اتخذت فيما يبدو لتجنب المكوث طويلاً في مكان واحد حتى لا يجلبوا الانتباه

إليهم. والسبب الآخر له هدف محدد. فقد قام الطيارون بحجز رحلات عشوائية حول أمريكا بهدف استطلاع الإجراءات والتدابير الأمنية المتبعة في شركات طيران مختلفة. بينما عاد حنجور والحازمي إلى أريزونا لبعض الوقت حتى يتمكن حنجور من مواصلة تدريباته على أجهزة محاكاة الطائرات.

أدرك الخاطفون المستقبليون أن شراء التذاكر بواسطة إثباتات هوية محلية تجعل من شراء كل شيء وبخاصة تذاكر السفر أمراً أسهل ويستدعي تدقيقاً أقل. وذهب عدد منهم – سبعة من بين التسعة عشر – إلى فيرجينيا تحديداً للحصول على بطاقات هوية أو رخص سوق، بعد أن تبين لهم أن فيرجينيا مكان سهل لعمل ذلك. ومن بين المصادر المحتملة لتلك المعلومة محمد بلفاس وهو من هامبورغ، والذي كان مرشداً لعطا في هامبورغ، وكان بلفاس حصل على رخصة سوق من فيرجينيا قبل عام من ذات المكتب تحديداً وباتباع ذات الإجراءات التي اتبعتها المجموعة فيما بعد. ثم عندما عاد إلى ألمانيا، التقى وعن طريق الصدفة عمر، رمزي بن الشيبة، وأخبره عما حدث معه[29]. واستخدم جراح العنوان المزوّر نفسه الذي استخدمه بلفاس عندما تقدم بطلب الحصول على بطاقة الهوية الشخصية.

ظهر فيما بعد ادعاءات برؤية المجموعة أو أفراد منها. وبالتحديد محمد عطا، بوجهه ذي الملامح المميّزة والذي اشتهر على نطاق واسع بعد أن تناقلت صورته وسائل الإعلام المحلية والعالمية. ظهرت هذه الادعاءات برؤية عطا في كل مكان. أو على الأقل، هذا ما تذكره الناس بعد وقوع الهجمات. فقد قيل إنه حاول شراء طائرة تستخدم في رش المحاصيل الزراعية، وأنه تلقى علاجاً بالتسمم بالجمرة الخبيثة (الآنثراكس)، وأنه قام برحلات استطلاعية فوق عدد من المفاعلات النووية لتوليد الطاقة. وأنه كان سكراناً في إحدى الحانات على الشاطئ، وأبرز هذه الادعاءات وأكثرها خطورة ما قيل أن عطا سافر

تحت اسم مستعار إلى براغ في جمهورية التشكيك أواسط إبريل/ نيسان، وأنه اجتمع هناك بجاسوس عراقي كان يخطط لتفجير برج للبث الإذاعي لراديو فري أمريكا (راديو أمريكا الحرة). وقليل من هذه الادعاءات محتمل الوقوع. وبعضها غير صحيح من الناحية العملية. ولم تثبت صحة أي منها[30].

الاجتماع الأخير

مع حلول الصيف، كان كل فرد من أعضاء الفريق قد تبوّأ مكانه بحسب الخطة. وفي 8 يوليو/ تموز، سافر عطا جواً إلى إسبانيا للاجتماع بعمر. وكانت القاعدة تدرك أن اتصالاتها الإليكترونية معرضة للتجسس عن طريق التقنية المتقدمة. وإذا برزت الحاجة لتوصيل معلومات مهمة، فإن الرسائل كانت توصّل عن طريق البريد السريع، أو باللقاء وجهاً لوجه. ومن مظاهر قوة المنظمات الصغيرة مثل القاعدة هو كونها صغيره. فلو كانت القاعدة منظمة كبيرة بكل ما يتطلبه ذلك من بنية تحتية، لكانت عرضة للاختراق من قبل الاستخبارات الأمريكية. وافتقار القاعدة إلى القوة جعلها، بطريقة ما، أكثر قوة. كما أن حجمها يظهر طبيعة الخطر غير المتكافئ القادم من غير الدول. وكانت هجمات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، بلا شك أكبر شيء حاولت القاعدة فعله. ومع ذلك، كان عدد الأشخاص الذين شاركوا في تلك العملية لا يتجاوز أصابع اليد. وقد ساعد هذا في الحفاظ على إخفاء الخطة.

حتى تلك اللحظة، كان عطا متوتراً. ففي اليوم الذي غادر فيه فلوريدا، قام بالاتصال برقم هاتف خلوي في ألمانيا أربعاً وسبعين مرة[31]. والمفترض أن الرقم يعود لعمر وأن عطا أراد تأكيد الاجتماع. وفي اليوم التالي لوصول عطا إلى مدريد، قام باستئجار سيارة هاينداي فضية وتوجه إلى ناراغونا، التي تبعد مسيرة ثماني ساعات بالسيارة وتقع على الساحل الذهبي. والساحل الذهبي - كما يسميه الأسبان - هو ذلك الجزء من الشاطئ المطل على البحر

الأبيض المتوسط. وفي ظهيرة ذلك اليوم، 9 يوليو/ تموز، استقل عمر رحلة سياحية تتوجه مباشرة من هامبورغ إلى ريوس في مطار صغير قرب ناراغونا. ويعتبر الساحل الذهبي منطقة سياحية مشمسة من الدرجة الثانية، مقارنة بالمنطقة الأكثر جمالاً وغلاءً الواقعة إلى الشمال منه. ويبلغ تعداد سكان سالو، وهي البلدة التي حجز فيها عطا غرفته – في الشتاء ستة عشر ألف نسمة، ثلثهم من المغاربة. وفي الصيف يرتفع عدد السكان ليبلغ 300 ألف نسمة، وغالبيتهم من السياح القادمين من إنجلترا والوسط الأوروبي. وقد وصل عطا وعمر وسط هذا الزحام. وبعد مبيتهم ليلة في فندقين في بلدتين متجاورتين، اختفى عطا وعمر لمدة أسبوع. وفيما عدا رحلتين قام بهما عطا، الأولى إلى جهاز صراف آلي ليسحب منه بعض النقود، والثانية من أجل حجز رحلة العودة إلى فلوريدا، فإنه لم يوجد أي أثر لهما – لا يوجد حجز للفندق، أو فواتير مطاعم، أو مكالمات هاتفية، والمفترض هنا أنهما اجتمعا في بيت آمن وفرته لهما شبكة الإسلاميين القوية التي نشأت على مدى العقد الماضي في إسبانيا. وكان يتزعم هذه الشبكة شخص يدعى عماد الدين بركات، وهو سوري الأصل من جماعة الإخوان المسلمين الذين عاشوا في المنفى في أوروبا.

كان بركات رجلاً بديناً، ضخماً، وذا صوت جهوري. يكتسب رزقه كبائع متجول في الشوارع، وأحياناً كان يبيع السيارات المستعملة، والمعاطف الجلدية، أو أحدث موضات قمصان لاكوست التي كان يحفظها في مؤخرة السيارة التي يمتلكها في تلك اللحظة. كما باع أشرطة الكاسيت في محطات المترو. يقول بركات واصفاً نفسه: "إنني أشتغل بكل شيء: الملابس، السيارات، العسل، السجاد"، ويضيف، "كل ما يتوفر. إنني تاجر حر. لست متخصصاً بشيء واحد"[32]. ومع أنه على ما يبدو، لا يكسب الكثير من المال من عمله هذا، إلا إنه كان يخرج الكثير من جيبه حين تدعو الحاجة، وكان يعيش حياة تتجاوز مصادر دخله الظاهرة؛ فقد كان يسكن في شقة سكنية في الطابق العلوي في

أحد أحياء الطبقة العاملة. وكان يملك من المال ما يكفي لتمويل مشاريع إنشائية، وشراء تجمعات سكنية في الجبال المطلة على مدريد لكبار السن المتقاعدين؛ وكان هذا المجمع السكني المخصص لكبار السن غير عادي في أنه كان يضم طاقماً كبيراً من الموظفين العرب وليس فيه سوى عدد قليل من كبار السن[33].

وشبهه أحد المحققين في الشرطة الإسبانية بالملك بين حاشيته: "كان كالملك الذي لا يحمل النقود لأن غيره يحملها له"[34].

وكباقي قادة الشبكات الإسلامية، كان بركات كثير الأسفار. وفي الغالب إلى لندن (أكثر من عشرين مرة في إحدى سنوات التسعينيات)، وتركيا، وبلجيكا، وإيطاليا، والأردن، وسوريا، والإمارات العربية المتحدة، وماليزيا. وهذه الأسفار لا تشبه أسفار التاجر المتجول المتواضع كما يحاول أن يظهر نفسه.

ومع تقدم إسبانيا في السن، وازدهارها اقتصادياً في التسعينيات من القرن الماضي، ارتفعت موجات الهجرة إليها. وهيمن المغاربة على جموع المهاجرين من شمال إفريقية، حيث أقاموا شبكات لنقل وتهريب المهاجرين غير الشرعيين من الشواطئ وإنزالهم في قوارب التهريب على الجهة المقابلة. وكان من شأن هذا التجمع السكاني المفاجئ للمسلمين أن شكل رافداً لمزيد من المجندين لشبكات الأصوليين بين الشباب الذي هاجر سعياً للحصول على لقمة العيش عن طريق العمل في الإنشاءات والزراعة والخدمات الصناعية.

وفي عام 1994، أنشأ بركات جماعة جنود الله. وهي جماعة أصولية اصطدمت مع إمام مسجد أبو بكر الذي يتوسط مدينة مدريد[35]. وتقول الشرطة: إن جماعة بركات والشبكات المتحالفة معها في شمال إفريقية عرضت وقدمت دعماً وبيوتاً آمنة تمتد من مدريد إلى باميلونا وغرناطة. ومن المستبعد أن يجهل بركات قدوم ووجود عطا وعمر في مناطق نفوذه. فقد كان صديقاً مقرباً من شخصين سوريين في هامبورغ هما محمد حيدر زمّار، الذي

يعتقد أنه جند عطا وعمر في صفوف القاعدة، ومحمد داركازنلي. وهذا الأخير كان، في واقع الأمر، في إسبانيا في الوقت نفسه الذي كان فيه عمر وعطا فيها. وخطط بركات وداركازنلي للالتقاء والتنسيق بينهما[36].

وبغض النظر عن المكان الذي اجتمع فيه عطا وعمر، فإن الهدف منه كان منصباً على تقديم تقرير من قبل عطا عن وضع الفريق في الولايات المتحدة ليتم رفعه إلى القيادة في أفغانستان. وقال عطا لعمر بأن الفريق أصبح جاهزاً، وأن الأهداف عوينت وأن الطيارين جاهزون. وقاموا بمناقشة التحضيرات النهائية والوسائل التي يمكن لعطا أن يخبر عمر من خلالها بتاريخ الهجمات التي لم تحدد بعد[37].

وكان هناك مشكلة وهي أن زياداً يواجه بعض الصعوبات وليس بالإمكان معرفة سببها على وجه التحديد. إلا أن العلاقة بين جراح وعطا قد ساءت لدرجة أن جراح هدد بالانسحاب من الخطة،[38] ولم يكن الاثنان يعرفان بعضهما جيداً. وفي هامبورغ، كان زياد جراح يدرس في جامعة مختلفة ويسكن وحده في جزء مختلف من المدينة. وكان أقرب إلى عمر من أي شخص آخر. كما كان من المفروض أن يقوم عمر بالتدريب على الطيران في فلوريدا مع جراح، ولكنه بعد أن فشل في الحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة تُرك جراح وحده، ورفض جراح العمل تحت سلطة عطا. وبينما كان عطا والشحي يستكملان تدريباتهما، لم يستطع جراح، لأي سبب كان، أن يستكمل متطلبات حصوله على رخصة طيران تجاري. ومن الصعوبات الظاهرة: علاقته المستمرة مع آيسل. وكان هذا الأمر يضايق عطا المجبول على الانضباط، بحسب قول عمر[39]. وعطا، على ما نذكر، كان ينزعج عندما يقوم أفراد حلقته في هامبورغ بالإسراع في قراءة القرآن. وكان لا يتحمّل عدم التزامهم بما هو مفترض. قام عطا بنقل المشكلة إلى عمر، ورفع هذا الأخير

المشكلة إلى خالد شيخ محمد الذي أبدى عدم رضاه لما يجري، وأمر عمر بمحاولة الإصلاح بين الاثنين لأنهم لا يستطيعون خسارة جراح في هذا الوقت[40]. وفي رسالة إليكترونية، حذر محمد من أنه "إذا طلب جراح الانسحاب، فإن ذلك سيكلفنا الكثير من المال"[41]. وبغض النظر عن الطريقة التي حقق من خلالها ذلك، استطاع عمر التوفيق بين عطا وجراح، واستأنفت الخطة سيرها نحو النهاية، بعد أن تلكأت قليلاً.

وقبل عودته إلى الولايات المتحدة بقليل، قام عطا بإرسال رسالة عبر هاتفه الخلوي إلى سعيد بهاجي واثنين من أصدقائه في هامبورغ: "سلام. هذه الرسالة لكما. عباس ومنير. ألم يأن لكما أن تخافا كلام الله. أحبكم جميعاً. أمير"[42].

الشهر الأخير

كان زكريا موسوي، كعادته، يسبق بإرسال بريد إليكتروني قبل أن يقوم بأي خطوة. واتصل، هذه المرة، بأكاديمية بان آم الدولية للطيران. وهي أكاديمية تضم عدة فروع لمعاهد الطيران مركزها الرئيس في فلوريدا:

مرحباً، أنا السيد زكريا!

بشكل أساسي، أود معرفة إن كان بإمكانكم المساعدة في تحقيق "هدفي" حلمي. أرغب بأن أصبح قادراً على قيادة واحدة من الطائرات الكبيرة بطريقة "مهنية". ويبقى أمامي أن أقرر أي واحدة من الطائرات التالية: بوينغ 747، 757، 767، أو 777 أو إيرباص 300 (وهذا كله سيعتمد على التكلفة وأي منها أسهل تعلماً).

والمستوى الذي أرغب بتحقيقه هو المقدرة على الانطلاق والهبوط والتعامل مع الاتصالات [مع برج التحكم بالملاحة

الجوية]، والقدرة على الطيران بنجاح من نقطة أ إلى نقطة ب (جي إف كيندي إلى هيثرو على سبيل المثال).

بعبارة أخرى، المقدرة على قيادة واحد من الطيور الكبيرة، حتى وإن لم أكن طياراً محترفاً... يوجد لدي حوالي 55 ساعة طيران على [طائرة سيسنا] .152 وقد اجتزت بنجاح [الامتحان] الكتابي الشهر الماضي.

إنني أعلم أن بإمكاني أن أكون أفضل، ولكنني متأكد أن بإمكانكم فعل شيء. فبعد كل شيء نحن جميعاً هنا في أمريكا. وكل شيء ممكن. طاب يومكم، منتظراً طيراناً إيجابياً.

وشكراً لكم.

زاك[43].

وفي 10 يوليو/ تموز، سجل موسوي في أكاديمية بان آم الدولية للطيران في الفرع الواقع في ضواحي مينيابولوس للتدريب على مشبه للطيران. وكان ما يزال يقيم في أوكلاهوما، حيث انسحب من دورة سجل بها في السابق. إلا أنه بقي على قائمة القاعدة كطيار محتمل. وقام عمر بتحويل مبلغ آخر قيمته 4 آلاف دولار بداية أغسطس/ آب. وتوجه موسوي وصديق له اسمه حسين العطاس براً إلى مينيسوتا. لم يكن في نيتهما المكوث طويلاً هناك. وقال موسوي لعطاس بأنه يجب عليهما مغادرة البلاد إلى باكستان بعد النصف الثاني من سبتمبر/ أيلول كحد أقصى. وفي تلك الأثناء، كان على موسوي القيام بشيئين: تعلم قيادة طائرة كبيرة، وتعليم العطاس فن القتال. وقال له موسوي: "عليك أن تعرف كيف تقاتل إذا أردت أن تشارك في الجهاد"[44].

استأجر الاثنان غرفة صغيرة، ودفع موسوي مبلغ 8300 دولار لمعهد الطيران. وفي 13 أغسطس/ آب، بدأ تدريباته الجديدة. ولكنه لم يقطع شوطاً طويلاً. فبعد يومين اتصلت الأكاديمية بالفرع المحلي لمكتب التحقيقات الفيدرالي وقالوا لضباط المكتب بأن لديهم ما يعتقدون أنه خاطف طائرات محتمل. وأنه تلقى بعض التدريب على قيادة الطائرات الصغيرة ذات المحرك الواحد، وأنه الآن مصر على تعلم قيادة أكبر الطائرات التجارية العاملة في العالم، وبأسرع وقت ممكن. وفي ظهيرة اليوم التالي حضر محققو مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى الأكاديمية. ومع حلول المساء كان موسوي في السجن على خلفية مخالفة قوانين الهجرة. وفي اليوم التالي، قام محققو مكتب التحقيقات الفدرالي في مينيسوتا بإخطار مسؤولي مكافحة الإرهاب في واشنطن العاصمة وبدؤوا بالسعي نحو الحصول على إذن بتفتيش ممتلكات موسوي، وبخاصة حاسوبه المحمول. وكتب أحد المحققين في هامش محضر التحقيق الذي أجراه مع موسوي بأن موسوي شخص من النوع الذي يمكنه خطف طائرة لاستخدامها في ضرب برج التجارة العالمي. وكان القلق الذي تمخض عن التحقيق على درجة من الجسامة لدرجة أن مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي لويس فريه ومدير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA جورج تينيت تم إبلاغهما باعتقال موسوي. وعلى الرغم من ذلك، لم يستطع المحققون في مينيسوتا الحصول على إذن بتفتيش حاسوب موسوي. وفي ذلك الحاسوب أدلة على تعاملاته مع عمر وحنبلي.

لم يكن أحد في الحكومة الأمريكية يعلم في ذلك الوقت، طبعاً، أن خالد شيخ محمد قد أعد خطة لمهاجمة الولايات المتحدة، وأن هذا الهجوم بات وشيكاً. إلا أن الحكومة كانت تعلم أن شخصاً من القاعدة يعدّ لعمل شيء ما. وغُمرت شبكات الاستخبارات وعلى مدار عدة شهور بموجات من المعلومات

والدلائل والشكوك. وطغى شعور من القلق الشديد على أجهزة الاستخبارات في الولايات المتحدة والخارج، تمثل ببعض الإرباك في بعض الأماكن من أن شيئاً فظيعاً على وشك الوقوع. وكانت الدلائل موجودة،[45] فقد أفرزت آليات الاستخبارات حول العالم كميات ضخمة من المعلومات لدرجة أن المحللين كانوا يجدون صعوبة في متابعة سرعة تدفق تلك المعلومات، ناهيك عن توفر الوقت لديهم للتفكير بما يجب فعله تجاهها[46]. وكانت اللاقطات الإليكترونية، وأجهزة رصد الهواتف، وسجل المكالمات الهاتفية، والتحذيرات التي جاءت من أجهزة الاستخبارات الأجنبية، إضافة إلى المخبرين، والمذكرات الداخلية، وكل شيء تشير إلى وجهة واحدة: هناك شيء ما. وبعض هذه المعلومات كانت تخص خالد شيخ محمد بالتحديد. وتلقت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA تقارير مؤكدة تفيد أن خالد شيخ محمد كان يجند العملاء للسفر إلى الولايات المتحدة وأنه بعد وصولهم إليها يقومون بالاتصال مع عملاء موجودين فعلاً في الولايات المتحدة[47]. وهذا بالضبط هو ما كان يفعله.

يقول توماس بيكارد، نائب مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي: "بحسب ما أذكر، خلال الفترة ما بين يناير/ كانون ثاني من عام 2001، تلقى مكتب التحقيقات الفيدرالي أكثر من ألف تهديد"[48]. ويضيف بأن "كثيراً من هذه التهديدات كانت بالغة التحديد والدقة، وكانت التهديدات الأخرى ذات طبيعة عامة. إلا أن الزيادة في التهديدات الكلامية كانت أكثر التهديدات خطورة، ولكنها من الأكثر صعوبة في التعاطي والتعامل معها".

ويقول جورج تينيت، مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية: CIA توهجت مصادرنا لجمع المعلومات خلال تلك الفترة الحرجة"، وأضاف، "وأفادوا بأنه يجري الإعداد لعدد من الهجمات الاستعراضية، وأن بعض هذه الخطط هي في مراحلها الأخيرة،... إلا أن التقارير كانت تفتقر بشكل يبعث

على الجنون، إلى أي تفاصيل تمكننا من اتخاذ أي إجراء حيالها. وكانت أخطر هذه التقارير وأكثرها غموضاً تلك التي تفيد بضرب شيء كبير... واجتهد محللونا في محاولة العثور على الرابط بين هذه التقارير، وكذلك صلتها بالتهديدات الإرهابية السابقة والمناورات والأساليب المعهودة. لقد وضعنا في اعتبارنا احتمال أن تكون القاعدة تتعمد تمرير هذه التقارير بهدف خلق الإرباك والبلبلة عن طريق التضليل المعلوماتي. ومع ذلك توصلنا إلى نتيجة أن هذه الخطط كانت حقيقية. وعندما أفادت بعض التقارير أن هجوماً كان مزمعاً إلا أنه قد أجّل، واصلنا التركيز على أن هناك بالفعل خططاً للقيام بهجمات متعددة، وأن بضعاً منها قيد التنفيذ. وعندما تزايد قلقنا من أن معظم الأدلة تشير أن الهجمات ستقع في الخارج، استحضرنا في أذهاننا أن الطموح الأكبر لابن لادن كان منذ وقت طويل توجيه ضربة في العمق الأمريكي"[49].

حدث ذلك كله في وقت كانت أجهزة الاستخبارات مغمورة بهذه المعلومات المخيفة التي لم نستطع فك رموزها. وكان ضباط مكتب التحقيقات الفيدرالي في مينيسوتا يحاولون جاهدين الحصول على موافقة المحكمة المحلية للسماح لهم بمعاينة حاسوب زكريا الموسوي ودفاتر العناوين التي يحتفظ بها[50]. كما قام عملاء من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية بإبلاغ مكتب التحقيقات الفدرالي في وقت متأخر بأن عميلين آخرين للقاعدة ربما كانا موجودين في الأراضي الأمريكية، هما نواف الحازمي وخالد المحضار. وبدأت عملية البحث عنهما بعد تسعة عشر شهراً من وصولهما البلاد[51]. وأدرك محللو وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA أخيراً أن الحازمي والمحضار اللذين كانا تحت المراقبة في ماليزيا في يناير/ كانون ثاني عام 2000 شاركا أيضاً في الشهر التالي في تفجير المدمرة الأمريكية كوول في ديسمبر/ كانون أول.

كان السعوديان في ذلك الوقت قد اندمجا مع الطيارين من هامبورغ ومعهم الشباب الثلاثة عشر الذين وصلوا ذلك الربيع. وتنقل العرب التسعة عشر شمال وجنوب الساحل الشرقي وبمجموعات مختلفة على مدى عدة أسابيع. تدربوا في أندية اللياقة البدنية، وأكلوا البيتزا الرخيصة، وصلّوا، ودرسوا أدلة الطيران.

كان كل شيء جاهزاً، وسارت الأمور أقل أو أكثر بحسب ما هو مخطط لها، وذلك بالرغم من أن تعداد الفريق كان ناقصاً رجلاً بحسب الخطة التي كانت تفترض مشاركة عشرين شخصاً في فريق الضربة، أي بمعدل خمسة أشخاص لكل طائرة، ولم يكن لديهم سوى تسعة عشر شخصاً فقط. ولما رفض طلب الشخص الذي كان يفترض فيه أن يكمل العدد إلى عشرين، وهو جزء من مجموعة السعوديين الذين قدموا في الربيع، في الحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات، ولم يستطع بسبب ذلك القدوم إلى الولايات المتحدة،[52] قام خالد شيخ محمد بمحاولتين على الأقل، وربما أكثر من أجل تعويض ذلك النقص. وفي يوليو/ تموز، تقدم ابن أخته علي عبدالعزيز علي، الذي كان يقوم بتحويل الأموال إلى الخاطفين في الولايات المتحدة، بطلب الحصول على تصريح دخول إلى الولايات المتحدة من الإمارات، فرفض طلبه هو الآخر، ليس بسبب ارتباطاته الإرهابية، ولكن لأنه كان بحسب قناعة موظفي السفارة الأمريكية مهاجراً بهدف العمل. وتقدم خالد شيخ محمد نفسه، مستخدماً إثباتات هوية سعودية، بطلب للحصول على تأشيرة دخول من السفارة الأمريكية[53] فحصل عليها، ولكن لا يوجد أي دليل على أنه حاول استخدام تلك التأشيرة.

وفي أغسطس/ آب، وصل محمد الكتاني، وهو الآخر سعودي، إلى أورلاندو قبل أن تعيده سلطات الهجرة الأمريكية إلى بلده. كان هذا الرجل لا

يملك ما يكفي لتغطية نفقات الرحلة السياحية لمدة أسبوع والتي ادعى أنه جاء ليقضيها في أمريكا. ولم يكن معه تذكرة للعودة، ولا بطاقات اعتماد، مضافاً إليها سلوكه السيئ. أخبر موظفي الهجرة في المطار أن له صديقاً ينتظره في الخارج. ثم وبعد أن ضغط عليه، تراجع عن قوله وقال بأنه لا يوجد أحد في انتظاره. وكان عطا موجوداً في الطابق العلوي من المبنى في ذلك الوقت، في انتظار كتاني على ما يبدو[54]. إلا أن كتاني لم يخرج من قسم دائرة الهجرة في المطار. وأعيد على أول طائرة متوجه إلى دبي. وبذهاب كتاني ذهب أي سبب للانتظار.

تقرر أن يمضوا قدماً بالتسعة عشر رجلاً المتوفرين لديهم. وسيستقلون أربعة طائرات لضرب أربعة أهداف، منها ثلاثة وقع الاختيار عليها منذ وقت طويل، وهي: البرجان التوأمان لمركز التجارة العالمي في نيويورك إضافة إلى البنتاغون (مبنى مقر وزارة الدفاع الأمريكية). وجرى نقاش محتدم حول الهدف الرابع والنهائي، واستمر هذا النقاش لعدة أشهر، وكان الخيار بين البيت الأبيض و مبنى الكونغرس. فضّل ابن لادن البيت الأبيض بينما كان عطا يرى أن البيت الأبيض هدف يصعب ضربه[55]. وحسم القرار أخيراً لصالح اقتراح عطا، وتم اختيار موعد نهائي لتوجيه الضربة يكون فيه أعضاء الكونغرس مجتمعين بحيث يضرب المبنى وبداخله الأعضاء الذين كانوا هم أيضاً مستهدفين. وفي منتصف أغسطس/ آب، أرسل عطا رسالة إلى عمر عبر إحدى غرف الدردشة في الإنترنت "سيبدأ الفصل الأول خلال ثلاثة أسابيع. لا توجد أي تغيرات. الكل على ما يرام" وبدأت أطقم الضربة بشراء تذاكر سفرهم وتأكيد حجوزاتهم[56]. وانتظر عمر مكالمة من عطا زيادة في التأكيد. وجاءت المكالمة في 29 أغسطس/ آب. وقام عمر بدوره بإرسال زكريا الصبّار إلى أفغانستان ليخبر خالد شيخ محمد بالأخبار[57]. ساعة الصفر - كما يسمونها - ستكون في الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول الذي يصادف يوم الثلاثاء.

ذاعت الأخبار عبر شبكات القاعدة. في باكستان، أخبر خالد شيخ محمد، شاباً كان يحاول تجنيده لعملية في جنوب شرق آسيا أنه بحاجة لأن يكون جاهزاً قبل الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول، قاصداً أنه لن يكون من الأمان السفر بعدها[58]. وفي أوروبا، قام بقية أعضاء مجموعة عمر - الأمير بتحضيرات للخروج من البلاد. أخبر سعيد الصبار، قبل الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول بثلاثة شهور، الشركة التي يعمل فيها عن نيته السفر إلى باكستان للاستفادة من دورة تدريبية وأنه سينتقل إلى هناك. وقال صاحب الشركة بأن الصبار كان موظفاً ممتازاً، وأنه يأسف لنيته ترك العمل[59].

ذكر بهاجي لأسرته قصة مشابهة حول الوظيفة التدريبية. سمعت بذلك خالته باربرا آرينز، ولكنها لم تصدق حرفاً واحداً منها. فتوجهت إلى الشرطة قبل 11 سبتمبر/ أيلول تحثهم على فعل شيء[60]. فسألوها: مثل ماذا. لقد غادر بهاجي هامبورغ في 4 سبتمبر/ أيلول، وطار إلى كراتشي مروراً باسطنبول، ثم اختفى بعدها. كان برفقة بهاجي في تلك الرحلة شخصان جزائريان، وأقاما معه في ذات الغرفة التي استأجرها في فندق أميس في كراتشي. وأحد هذين الشخصين كان يقطن في المدينة الإسبانية نفسها التي سافر إليها عطا وعمر في يوليو/ تموز.

واختفى أيضاً من هامبورغ زكريا الصبّار وعمر. غادر عمر إلى إسبانيا في 5 سبتمبر/ أيلول من مدينة داسلدوروف. وأقام في منزل خاص في مدريد حيث حصل على مجموعة من وثائق إثبات الهوية المزورة. ثم توجه إلى اليونان ثم الإمارات العربية المتحدة ثم إلى خارج الخارطة[61].

الليلة الأخيرة

خلال الأسبوع التالي، تحرك الرجال الذين انتقلوا إلى الولايات المتحدة لأخذ مواقعهم، مستأجرين غرفاً في الفنادق والموتيلات الموجودة حول

واشنطن، ونيوجيرسي وبوسطن. وقام عطا، المجبول على الدقة، في 10 سبتمبر/ أيلول بمغادرة الفندق الذي أقام فيه يرافقه عبدالعزيز العمري، واستقلا سيارة مستأجرة، وتوجها إلى مدينة بورتلاند في ولاية ماين. حيث أمضى الاثنان ليلتهما في التسوق في متجر وول مارت، وتناولا البيتزا في مطاعم بيتزا هت قبل مبيتهما تلك الليلة. ولا أحد من خارج الخطة يعرف سبب قيامه بذلك(62).

وأجرى عدد من السعوديين المقيمين في بوسطن سلسلة من المكالمات الهاتفية في محاولة لجلب بعض العاهرات للاستمتاع بهنّ في الليلة الأخيرة. إلا أنهم صرفوا النظر بعد أن تبين لهم ارتفاع أجرة خدماتهن.

ومن غرفته من فندق ديز إن، في نيويورك، كتب زياد جراح رسالته الأخيرة إلى آيسل. وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي لم يكتم عنها شيئاً:

مرحباً عزيزتي آيسل،

حبيبتي، وحياتي، وسيدتي المحبوبة. يا قلبي، أنت حياتي.

أولاً وقبل كل شيء، أريد منك أن تصدقي حقاً وأن تعي جيداً أنني أحبك بقلبي كله. يجب أن لا يكون لديك أي شك بذلك. إنني أحبك، وسوف أحبك دائماً، إلى الأبد. لا أريدك أن تحزني لأني أعيش في مكان آخر حيث لا يمكنك مشاهدتي ولا سماع صوتي، ولكنني أراك وأعرف أحوالك. وسوف أنتظرك إلى أن تأتي إليّ. كل واحد منا له أجله، وسوف أذهب للقائه أعترف أنني مذنب لأنني منّيتك بالزواج، وحفلة الزفاف، والأولاد والأسرة، وأشياء أخرى كثيرة.

إنني كل ما تتمنين، ولكن من المؤسف أن عليك أن تنتظري إلى حين لقائنا ثانية. إنني لم أهرب منك، إلا أنني فعلت ما يمليه علي

الواجب. ويجب عليك أن تكوني فخورة بي. إنه شرف كبير، وسوف تشاهدين النتائج، وسيفرح الجميع بها. أريدك أن تبقي قوية كما عهدتك. وأن يبقى رأسك مرفوعاً عالياً مهما فعلت، وأن يكون أمامك هدف دائماً، لا أريدك أبداً أن تكوني بلا هدف. ليكن الهدف دائماً نصب عينيك، واسألي نفسك دائماً "لماذا".

تذكري دائماً من أنت وماذا أنت. كوني مرفوعة الهامة، فالمنتصرون لا يطأطئون رؤوسهم أبداً.

تمسكي بما لديك إلى أن نلتقي ثانية، وعندها سوف نعيش حياة جميلة أبدية، لا توجد فيها مشاكل، ولا أحزان، في قصور من الذهب والفضة...و...و ...و.

لم أتركك وحدك. فالله معك، ومع والديّ. وإذا احتجت شيئاً فاسأليه ما تريدين. إنه يسمع ويعلم ما في نفسك.

قال نبينا: "إنه رجل فقير من ليس له زوجه. وإنها امرأة فقيرة من ليس لها رجل". وسوف آخذ بيدك في جميع الأحوال ولو تزوجت بعدي ثانية فلا تخافي. أنت تعلمين أنني لا أحب كل الرجال. فكري من أنت ومن يستأهلك.

إنني أعانقك وأقبل يديك. وأشكرك وأقول لك آسف على الخمس سنوات الجميلة والقاسية التي أمضيتها معي. سوف تثابين على صبرك هذا ... بإذن الرب، أنا أميرك وسوف آخذ بيدك.

إلى اللقاء في المرة القادمة!!

رجلك دائماً.

زياد جراح

9 - 11 - 2001 [63].

obeikan.com

منذ 11 سبتمبر/ أيلول، كانت هناك تكهنات بأن كثيراً من، وربما معظم، الخاطفين لم يكونوا على علم بما سيحدث لهم في ذلك اليوم، ولم يعلموا أنهم سيموتون عن قريب. بل كانوا يعلمون. فقد وزعّت عليهم مجموعة تعليمات مكتوبة بخط اليد تتضمن تعليمات ونصائح ومقترحات وعبارات تشجيعية. وقدمت تلك التعليمات نصائح هادئة حول القيام بالتحضيرات بكل دقة كما كان أصحاب الرسول يجهزون أنفسهم للمعركة قبل أربعة عشر قرناً من الزمان. ويقول عمر بأن التعليمات كتبها عبدالعزيز العمري، وهو الشخص السعودي الذي رافق محمد عطا إلى ولاية ماين.

قال عمر: "لم تصدر هذه الكلمات عن شخص مخدوع بآمال زائفة كما يدعي المنافقون وأهل النفاق. بل صدرت عن رجل يعلم ما يفعل، وما سيفعل، لا عن رجل جاهل، بل رجل مؤمن يستوي في نظره الظاهر والمخفي. كل شيء سواء في نظره"[64].

كان عنوان هذه التعليمات "الليلة الأخيرة". وتضمنت خمسة عشر بنداً محدداً من الإرشادات كان أولها "المعاهدة على قبول الموت". وآخرها الاغتسال في الصباح كي "تستغفر لكم الملائكة". وبينهما نصائح للخاطفين بأن يعرفوا الخطة جيداً، وأن يشحذوا سكاكينهم، ويهيئوا أنفسهم للصعود إلى الجنة حيث سيكونون في صحبة أبدية مع الرب؛ "لقد ولّى وقت اللعب، وحان وقت اللقاء مع الحق الأبدي"[65].

وفعلاً، لقد حان الوقت.